مداخلة في ندوة حول: مذكرات اللواء الدكتور ياسين سويد.
المجلس الثقافي للبنان الجنوبي
.2012/3/29

قد يكون من الصعب أن يتوقع شخص ما أنه سيروي مذكراتِه في المستقبل. ما نحن في صدده هو حالة فريدة. اللواء الدكتور ياسين سويد عكف على تسجيل مذكراته إقتداء بأبيه، واقتنى صوراً تبين مراحل طفولته في قريته كفرحمام، وكذلك في المدرسة بكل دقائقها وتفاصيلها. وهو لا يكتفي بذلك، فبصفته عسكرياً خدمَ في الجيش اللبناني، سجل يومياته في المدرسة الحربية، وفي قطاعات الجيش اللبناني التي عمل فيها لاحقاً، وكذلك في خلال رحلاته الدراسية العسكرية في شتى أصقاع العالم. وبسبب حبه للتاريخ، ثم تخصصه فيه، كان سويد رحالة ومؤرخاً وشاهد عيان على أحداث لبنانية وعربية ودولية منذ الحرب العالمية الثانية، حتى اليوم.

لقد اجتمعت في ياسين سويد صفات ابن الضيعة وتلميذها، والطالب في بيروت وصيدا الذي يريد أن يتبوأ مراتب عالية في العلم، والضباط المثقف الذي لا يكتفي بحمل البندقية، بل يحمل قلمه ليدون ما يراه، والمثقف الذي يراكمُ ثقافته بالمطالعة والمشاهدة، ويعترف في الوقت نفسه بالتقصير، بأن ثقافته أشبه بحبة رمل على شاطئ طويل. لكن، عند يقرأ المرء عن زياراته إلى كل مدن أوروبا وإلى الأميركيتين والعواصم العربية، وإلى دول شرق آسيا، والمشاركةِ في مؤتمراتٍ علمية ونشاطات فكرية وإسلامية وقومية في لبنان وفي الخارج، يدرك أية ثقافة راكمها اللواء سويد، تزامناً مع ممارسة التعليم في الجامعة اللبنانية.
أيها الحفل الكريم،

كاد ياسين سويد أن يشق طريق الأدب والشعر والمشيخة، لولا أن جذبته المدرسة الحربية. وفي الوقت نفسه، جعله شغفه بعلم التاريخ أن يتحول إلى مؤرخ يفتش عن الوثيقة والمعلومة ليخرج منهما مقالاً أو كتاباً وحتى موسوعة مفيدة، أو أن يزور البلدان ويحاور الناس ليستخرج التاريخ الشفوي لشعب أو مدينة أو حدث ما. فيقول: لم تكن رحلاتي المتعددة إلى أوروبا بقصد التسلية فحسب، بل لدراسة الإنسان هناك والمجتمع الأوروبي. صحيح أن سويد تقاعد من الجيش في العام 1990، إلا أنه لم يتقاعْ مما ورثه من المؤسسة العسكرية: القامة المستقيمة، والنبرة العالية، والصرامة والرصانة، والانضباط. لكن من يغوص بعمق في شخصيته الإنسانية، يراه متواضعاً، ومحباً، ونقياً، وصادقاً، ومخلصاً، يدافع عن الحق وعن المظلوم. وصحيح أيضاً أنه تقاعد من الجامعة اللبنانية بعد خمس سنوات على ذلك التاريخ، لكن رحلته مع التأريخ مستمرة، كقطار لا يجد محطة يتوقف عندها. وقد أحزنني قوله في مقدمة كتابه إن المرحلة الأخيرة من مذكراته بدأت في سن السادسة والسبعين، وأن عمره سوف ينتهي يوم يريد الله له أن ينتهي. وأقول له بكل صدقٍ، أنَّ من ترك هذه المكتبة الضخمة من المؤلفات والموسوعات، وهذه الثقافة الوطنية والقومية، وهذا الود لأصدقائه، يبقى خالداً يا أبا خالد.

إن المذكرات التي بين أيدينا، ليست بمذكرات عادية، بل هي سطوٌ من تاريخ لبنان والمنطقة والعالم والأحداث المفصلية الخطيرةِ التي مرت بها، والتي مكنت اللواء سويد، بصفته العسكرية ومهنته كمؤرخٍ، أن يكون قريباً منها ويتفاعل معها. ومما استوقفني، ليس الحدث التاريخيُ بحد ذاته فحسب، ولا تحليله أو التعليق عليه، أو إضافة الجديد إليه، وإنما الصور الفوتوغرافية لأثار البلدان التي زارها ولمواقع المعارك العسكرية الفاصلة في التاريخ، والشروح التي يقدمها، فضلاً عن الصور لشخصه في مناسبات رسمية وخاصة، ومع فتيات فاتنات وملكات جمالٍ من كل بقاع الأرضِ، كلُّها ترينا اتساع حلقة صداقاته ومعارفه والبلدان التي زارها. كذلك، يقع

القارئ على أبيات من النثر التي تحرك المشاعر والعواطف والأحاسيس والوجدان، وأسلوبه الأدبي والألفاظ التي صيغت برونقٍ وجمالٍ وبهاء.

أيها الأصدقاء والأحباء،

نجد في المذكرات، صوراً عديدة لشخصية ياسين سويد، راوحت ما بين العسكري والمؤرخ الأكاديميِ والأديب والشاعر. فهو ابن الضيعة البسيط، من بيٍ علم وثقافة، جذبه العلم إلى المدينة، فارتحل إلى بيروت ودخل الكلية الشرعية، وانتقل بعدها إلى مدرسة المقاصد في صيدا. ثم حدثت انعطافة في مسيرة حياته، فتحول إلى المدرسة الحربية ليكون ضابطاً في جيشِ لبنان، ليحمي حدوده من المعتدين، بعدما هزته قضية فلسطين.

من كارثة فلسطين إلى نكسة السبعة والستين، وحربِ أكتوبر 1973 ونتائجها، وزيارة السادات إلى القدس وسلوكه طريق "السلام" مع إسرائيل، أحداث أحبطت سويد، وأشعلت النار في داخله، فنقم على الأنظمة العربية، محملاً جيله عاَ ضياع فلسطين، فكتب يقول:

وأشهد أني، وجيلي، هُزمنا نقضنا العهود، وخنّا القسم

بمرارة وإحباط وشعور باليأس، ربط سويد بين ضياع فلسطين ونكسة السابعة والستين ومستقبِ الأمة العربية القائم، معبراً عن ذلك بأبيات إلى نجله خالد تدل على ما كان يعتصره من ألم وعذاب، فقال: "غداً يا ولدي... سيصفعك تاريخنا المهان بذلّه صفعتين، وستعلم: لقد ذاق جيل أبيك الهزيمة المُرة في عمرِه مرتين". ولو شاء سويد تحديث شعره العامي هذا، لكان تحدث عن ألف هزيمة وهزيمة لحقت بالعرب أمام إسرائيل: في مجال الحرب، والاقتصاد، والتنمية، والمعرفة والتكنولوجيا، في مقابل تخاذل الأنظمة العربية. وهذا ما جعَه مع نخبة من المؤرخين والمختصين، يصدرون كتاب "القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني"، وأن يستكمل سويد ذلك منفرداً في كتابه "نحو إستراتيجية جادة لعمل عربي موحد" في منتصف التسعينيات، الذي أجزم أن أحداً من القادة العرب لم يقرأه ليتعلم منه.

شعر اللواء سويد بالذلّ بعد حزيران 1967 واستشرف، كعسكري ومؤرخ، خطر إسرائيل على الوطنِ العربي، وتوقع، في هذا السياقِ، مستقبلاً غامضاً لولديه خالد ونأهد، وبالطبع لكل أبناء الأمة العربية، فكتب إلى ولديه يقول:

في يوم قائم أسود من حزيران،
وعاُ الهزيمة يحرق أضلعي
ودمع الخُزي يشوي مقلتيّ
...
وفي مقلتيّك.. قرأت مصيرك المجهول،
وتخيلتُك في العراء، على الدروب الشقية
مع أُختِك الحبيبة الطرية
تُطاردكُما، في الحقول،
قنابل النابالم..
وكلاب اليهود،
فشعرت بالذلّ، بالتمزقِ، بالحقارة،
بالانكسار، بالخُزي، بنار العار

لأني خلقتُك بلا سلاحٍ
سوى الإيمان،
سلاح المنهزمين والضعفاء والأغبياء.

وبينما مأساة فلسطين جرح لا يندمل في قلب سويد، سببت حرب لبنان في العام 1975، إشكالية صعبة للضابط العقيد. كيف يوفق بين وظيفته كعسكري عليه تنفيذ الأوامر وبين الأوامر المعطاة له؟ كيف يحمي الإنسان في لبنان، وهو عاجز عن وقف القتل على الهوية الجاري على قدم وساق؟ ولهذا السبب، لم تستمرّ مَهمته الأمنية في تل الزعترِ أكثر من خمسة أيام فقط، لأنه لم يحصل على رضى القوى النافذة في المنطقة الشرقية؛ فنُقل بعدها إلى طرابلس. وبتناقض مع صلابته كعسكري، كان يبكي وهو يرى الأبرياء يُقتلون من دون ذنب، والمواطن يصفّي شريكه في الوطن من طائفة أخرى؛ فكان لا يجد سوى سلاح التوسل واستجداء المسلحين لإطلاق سراح فلان من طائفة وآخر من طائفة أخرى. لقد حتم عليه ضميره أن يكون إنساناً قبل أن يكون عسكرياً أو ابن طائفة. وفيما انجرَّ العديد من زملائه الضباط في الجيش إلى مواقع طائفية، بقي موالياً للمؤسسة العسكرية، رغم انتقاداته لبعض قراراتها.

حافظ ياسين سويد على وطنيته وعروبته في أحلك الأوقات. فعندما اجتاحت إسرائيل لبنان في العام 1982، وكان قائداً لجهاز أمن مطار بيروت، رفض مصافحة ضابط من جيش العدو. ويعترف اللواء سويد أنه راكم تجارب كثيرة أثناء خدمته في مطار بيروت: من ضبط الأمن، ومحاربة رشوة الموظفين المدنيين والعسكريين، والتشدد المفرط في منع دخوِ مدنيين وعسكريين وقضاة وزعماء ميليشيات إلى قاعات الوصول أو استخدام قاعِ الشرف من دون مسوّغ، إلى القصف على المطار وخطف الطائرات. لقد شبهه أحدهم بـ "الدكتاتور"، لكن سويد كان يُعلِمَ رؤساءه بكل ما يجري في هذا المرفق الإستراتيجي، حتى عندما فتح قاعة الشرف لرفيق الحريري تكريماً له على تنظيف بيروت من آثار الحرب الإسرائيلية على لبنان.

في القسم الثالث من المذكرات بين العامين 1995-2006، يتحدث اللواء الدكتور سويد عن اغتيال الرئيس الحريري في شباط العام 2005 وتداعياته، وكانا قد تعارفا في صيف العام 1982، يوم أطل الحريري على بيروت لإزالة آثار الاجتياح الإسرائيلي الهمجي عليها. يصف سويد حادثة الاغتيال بزلزال وقع عليه. ويرى في الحريري الرجل الذي "أتى إلى الحكم وهو يحمل مشاريع سياسية واقتصادية وإنمائية، لكن المتآمرين على لبنان أحبطوا، باغتيالِه، كلّ مشاريعِه". ويتطرق إلى لقاءات الحريري الأسبوعية بالسيد حسن نصر الله، وأن الأول كان يرفض نزع سلاح المقاومة، ويدافع عن قضيتها لدى دول الاتحاد الأوروبي. وينفي سويد التهم التي ساقها "الحاقدون" للتشكيك بوطنية الحريري وعروبته، ويقول:" كان قومياً عربياً أصيلاً، هكذا عاش واستشهد". ويضيف، أن استشهاد الحريري كشف عن عظمته، وبخاصة تعليمه خمسة وثلاثين ألف طالب على نفقته في أوروبا وأميركا، وإعالة أُسر غير ميسورة، وتبنى ثمانين طفلاً من أيتام مجزرة قانا في العام 1996. ويعتقد سويد أن اغتيال الحريري هو الذي جعل كل الطائفة السنّية، تقريباً، تنحاز إلى المعارضة، لأنها رأت في الاغتيال اغتيالاً "لرمزها ولأحلامها وأمالها العريضة".

وفي القسم الأخير من المذكرات، التي تمتد حتى العام 2011، الذي هو عرض لمواقف سياسية للواء سويد أكثر منه مذكرات، يتحدث عن يوميات الحرب الإسرائيلية على لبنان في العام 2006، ويصفها بأنها أميركية بوسائل إسرائيلية، وينتقد مواقف الحكام العرب المتخاذلة منها، ويدلي بآرائه حول مسارها وتداعياتها على لبنان في وسائل الإعلام اللبنانية والعربية

والدولية: النقاط السبع للرئيس السنيورة، والقرار الدولي 1701، ثم توقف القتال، ووقوع انشقاق كبير بين اللبنانيين حول الحرب ونتائجها. ثم ينتقل منها إلى معارك نهر البارد، ويصفها بالحرب على لبنان. أما أحداث أيار 2008، فيشير إليها بـ "الحرب الأهلية اللبنانية الثالثة". ولأنه يرفض نظام لبنان الطائفي والنظريات التي تتحدث عن فينيقية الكيان اللبناني، يخصص الفصل الثالث والعشرين من مذكراته لدحض مقولات تتكرر في الأدبيات التاريخيةِ ووسائل الإعلام حول نشؤ الكيان اللبناني وترسيم حدوده.

باختصار، مذكرات اللواء الصديق سويد تستحق منا القراءة، لأنها سجل على أحداث لبنان ومنطقتنا العربية لشاهد عيان جمع بين العسكرية والثقافة والتاريخ. فألف مبروك للواء الدكتور ياسين سويد بصدور مذكراته، ومبروك لنا صداقته ومحبته.